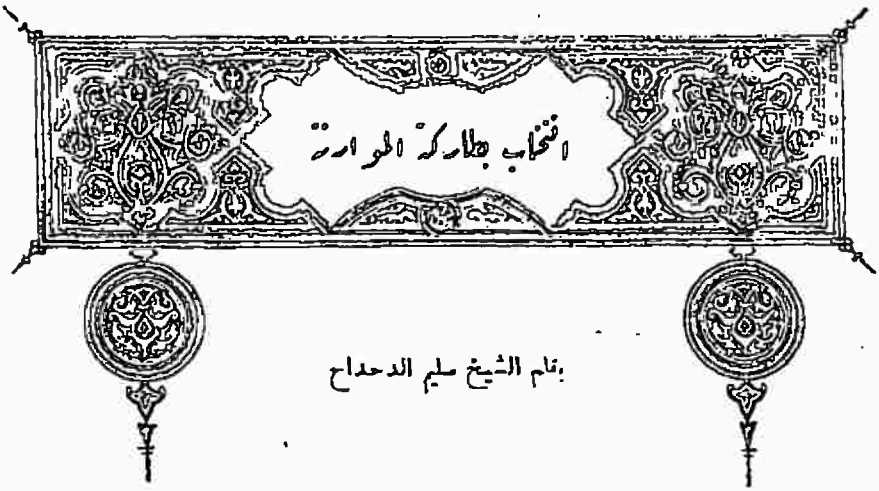

بقلم الشيخ سليم الدحداح

معلوم ان الانتخاب هو الطريقة المتبعة في الكنيسة المقدسة للوصول الى الرئاسة العليا . هكذا جرت العادة ، واقرّت القوانين ، بخصوص الاحبار الاعظمين الرومانيين ؛ وهكذا ايضاً جرت منذ القديم في ما يتعلق بالكراسي البطريركية الشرقية .

وقد كان يجري هذا الانتخاب في كنيستنا المارونية من قبل الاكليروس؛ ثم شاركهم الشعب في ذلك . وقد تثلبت عادة اشتراك العوام حتى ان الكرسي الروماني المقدس اجازها عمليا ؛ اذ انه رفض بعض الاحيان تصديق انتخاب البطريرك والانعام عليه بدرع الرئاسة ، عندما كانت اوراق الانتخاب تظهر خالية من تواقيع بعض عائلات من اعيان البلاد[1] . الّا ان امر مداخلة العوام واشتراكهم في انتخاب البطريرك والقبول به من قبل رومية لم يكن الّا من قبيل التساهل وخوفاً من شرّ اعظم .

ولما كثر عدد الاكليروس الماروني المتعلم في المدرسة الرومانية، وتحقق لدى الطائفة وجوب تنظيم هيئتها ، التمس البطريرك والرؤساء واعيان الشعب من الحبر الاعظم عقد مجمع لتهذيب احوال طقوسها ونظاماتها وترتيب امورها بصورة قانونية . فاوفد الحبر الاعظم اليهم بصفة قاصد رسولي احد رجال بلاطه ، وهو الماروني العالم الشهير يوسف سمعان السمعاني الحصروني ، فجاء لبنان . وبعد

1) انظر تاريخ الدويهي عن بطاركة القرنين السادس عشر والسابع عشر – وراجع ايضاً المشرق (٢٩[١٩٣١] ٨٢٤ و٨٢٥)

المداولة مع بطريرك واساقفة الطائفة واعيانها عُقد المجمع اللبناني في دير السيدة، في لويزة، من اعمال كسروان، المختصّ بالرهبنة اللبنانية الحلبية، وصار الاتفاق على تنظيمات وترتيبات اصبحت منذ ذلك الوقت، وبعد ان صدّقها الحبر الاعظم ببراءة خصوصية مؤرخة في ١ ايلول ١٧٤١، دستور الطائفة المارونية.

وقد طُبعت اعمال هذا المجمع في اللغة العربية، اول مرة، في اواخر القرن الثامن عشر في مطبعة الشوير للروم الكاثوليك. فلم تقرّ رومية هذه الطبعة، لانها مختلفة جدًا عن النسخة اللاتينية الموجودة في رومية والموقع عليها من آباء المجمع ومن الاعيان والنبلاء الذين وجدوا فيه.

ولما كان الاختلاف بين ذلك النصّ العربي والاصل اللاتيني منشأً للاختلافات بين البطاركة واساقفة الطائفة وبين المجمع الروماني المقدس، امر هذا المجمع في سنة ١٨٢٠ بطبع تعريب النسخة الموجودة عنده الموقعة رسمياً من القاصد الرسولي وسائر المشتركين في المجمع اللبناني المشار اليه. واخيرًا توفق المثلث الرحمات المطران يوسف نجم، النائب البطريركي الشهير، الى ترجمة اعمال المجمع عن النسخة الاصلية الرسمية الى اللغة العربية، واصدرها في كتاب كبير طبعه في مطبعة الارز في جونية سنة ١٩٠٠.

والحق يقال ان عهد تلك الاختلافات الناشئة عن اختلاف النصّ لم يتجاوز القرن الثامن عشر. وقد اشتهرت خصوصاً في مدة البطريرك سمعان عوّاد (١٧٤٣ ١٧٥٨)، والبطريرك يوسف اسطفان (١٧٦٦-١٧٩٣)، مع ان البطريركين المشار اليهما كانا من تلامذة مدرسة رومية، واولهما كان عيّنه الكرسي الرسولي تعييناً على اثر اختلاف مشهور بين الاساقفة حين الانتخاب، وسيأتي ذكره.

ومنذ بداية القرن التاسع عشر، تغيّرت الاحوال ولم يعد المجمع الروماني المقدس يرى موجباً لتدخله كما في عهد البطريركين السالفي الذكر. واخيرًا فان نشر الطبعة الاخيرة العربية قطع كل سبيل للخلاف، واصبح رؤساء الطائفة عالمين بحقوقهم وبواجباتهم ازاء الطائفة وازاء المجمع الروماني.

ولنعد الآن الى الانتخاب البطريركي.

حصر المجمع اللبناني حقّ انتخاب البطريرك بالاساقفة فقط ، كما ان انتخاب الحبر الروماني «رئيس الكنيسة» مختصّ بالكرادلة وحدهم . وحظّر مداخلة افراد الشعب والكهنة والرهبان بصورة قطعية . وجزم ان هذا الانتخاب يقع كتابةً من قبل الاساقفة والمطارنة الموجودين في محلّ الانتخاب . ومن كان منهم غائباً لا يحقّ له ارسال رأيه لا بطريقة التوكيل ولا خطاً مع رسول .

واشترط اجتماع ثلثي اصوات السادة الحاضرين ليتمّ الانتخاب ، والا فانه يُعاد . وحتّم على الاساقفة والمطارنة الحاضرين بعد موت البطريرك في محلّ وفاته (ان كان قد توفي خارج الكرسي) ، او في الكرسي البطريركي ، ان يباشروا ، برئاسة اقدمهم رسامةً ، اعمال الانتخاب في اليوم العاشر من وفاة البطريرك . ولكنه لم يعيّن لهم وقتاً لنهاية الانتخاب ، اي انه لم يحتّم عليهم بانجاز اعمالهم وبالمناداة بالبطريرك الجديد ضمن وقت معلوم . كذلك لم يعيّن وقتاً لمداخلة الكرسي الرسولي الروماني في قضية الانتخاب . فمن هذا السكوت في النصّ ، ومما حدث في الانتخابات التي جرت منذ سنة ١٧٣٦ حتى الآن ، يمكننا الجزم بان المجمع الروماني المقدّس لا يتدخل في الانتخاب الّا بعد ان يرفع اليه الامر السادة المجتمعون للانتخاب وأثبت هذا بالبرهان :

فقد دام فراغ الكرسي البطريركي الماروني ١٦ يوماً بعد وفاة البطريرك سمعان عواد ، من ١٢ الى ٢٨ شباط ١٧٥٦ . ودام ٢١ يوماً بعد وفاة البطريرك طوبيا الخازن ، من ١٩ ايار الى ٩ حزيران ١٧٦٦ . ودام اربعة اشهر و١٨ يوماً بعد وفاة البطريرك يوسف اسطفان ، من ٢٢ نيسان الى ١٠ ايلول ١٧٩٣ . ودام ٢٦ يوماً بعد وفاة البطريرك مخايل فاضل ، من ١٧ ايار الى ١٢ حزيران ١٧٩٥ . ودام مدة شهرين و٢٦ يوماً بعد وفاة البطريرك يوسف حبيش ، من ٢٣ ايار الى ١٨ آب ١٨٤٥ واخيراً انه قد دام ١٣ يوماً بعد وفاة البطريرك يوحنا الحاج ، من ٢٤ كانون الاول سنة ١٨٩٨ حتى ٦ كانون الثاني سنة ١٨٩٩ .

فمن هذا يتضح ان الاساقفة الذين اجتمعوا لانتخاب بطريرك على طائفتنا ١٢ مرّة ، منذ انعقاد المجمع اللبناني حتى عهد فقيدنا العظيم البطريرك الحويّك ،

لم يتقيدوا سوى ٤ او ٥ مرات فقط بمدة العشرة الايام التي تملكت على عقول واوهام ابناء هذه البلاد من موارنة وغيرهم . ومن هذه الارقام يتضح عدم وجوب هذه الضجة العظيمة ، وتلك الحملات الشديدة التي حملتها الجرائد ، وتلك المخاوف المريعة التي كانت تستولي على البعض من جراء بقاء المجمع الانتخابي منعقداً في بكركي بضعة ايام بدون ان تحصل النتيجة . ولا سيما ان الفرصة التي انقضت بين ٢٤ كانون الاول ١٩٣١ ، يوم وفاة البطريرك ، و٨ كانون الثاني سنة ١٩٣٢ ، وفيه صارت المناداة بضبطة ابينا الجديد مار انطون بطرس عريضة بطريركاً على انطاكية وسائر المشرق ، لم تتجاوز الـ ١٥ يوماً . قاتل الله العجلة والهوس والغرض الاعمى !

وكأني بهؤلاء الكتبة والمتوسين يتصورون ان نتيجة الانتخاب بسيطة لا اهمية لها ، ولا مسؤولية فيها امام الله والناس على هؤلاء المنتخبين ! فقد نسوا انه يتوقف على انتخاب هؤلاء السادة مستقبل طائفة ، وخير او ضرر شعب بأسره مؤلف من طوائف لبنان اجمع ! لو كُلف احدهم مسألة شخصية تتعلق بفرد ، لكان اهتمّ بها وقضى في درسها عشرات من الايام ، ومع ذلك فانه يوجب على ١٥ رئيساً ان يبتوا بخلال يوم او يومين في رئاسة طائفة ومركز يعدّ اكبر مراكز لبنان ، بل اكبر مركز نصراني في الشرق !

وقد نسي هؤلاء الصارخون انه في عهد قريب جداً منا قد توفي بطريرك الروم الكاثوليك فبقي فراغ الكرسي ٤٤ يوماً (٢٥ تشرين الاول الى ٨ كانون الاول ١٩٢٥) حتى اجمعت كلمة اساقفتهم على انتخاب غبطة السيد البطريرك الحالي . وكذلك لما توفي بطريرك السريان الكاثوليك في ٧ ايار سنة ١٩٢٩ دام فراغ الكرسي البطريركي عندهم ٤٨ يوماً ، الى ان تيسر للسادة الاساقفة انتخاب غبطة بطريركهم الحالي . ولم تقم قيامة الجرائد عندهم ، ولم يحدث مثل هذه الضجة .

وقد رأيت ان المجمع الروماني المقدس لم يتدخل في كل هذه الانتخابات السابقة الا لتصديق اوراق الانتخاب ، وارسال درع الرئاسة الى المنتخب ، بعد اتمام كل الشروط القانونية . ولم يستعمل الكرسي الرسولي المقدس حقه بتعيين

البطريرك سوى مرة واحدة ، منذ انعقاد المجمع اللبناني حتى اليوم . وذلك انه لما توفي البطريرك يوسف الخازن (ضرغام) ، في ١٢ ايار ١٧٤٢ ، اختلف الاساقفة وانقسموا . فاقام اكثريتهم الاسقف الياس محاسب بطريركاً . وحمل الفرض مخالفهم المطران طوبيا الخازن الى الاتفاق مع اسقف سرياني كاثوليكي ، وسيامة اسقفين جديدين من مريديه ، فاتفقوا على عقد مجمع وانتخابه بطريركاً . وارسل كل من اليدين الياس وطوبيا اوراق انتخابهما الى رومية ملتمسين تصديق الانتخاب . وبعد الفحص الذي اجرته رومية ، بواسطة رئيس عام رهبان مار فرنسيس في القدس الشريف ، اصدر الحبر الاعظم امره بالغاء الانتخابين ، وامر بتعيين سمعان عواد ، مطران دمشق ، بطريركاً للطائفة المارونية ، وذلك في ٦ آذار سنة ١٧٤٣ . فخضع له المنتخبان والطائفة كافة من رؤساء ومرؤوسين . ولم يُعد احد منهم هذا الامر تدخلاً اجنبياً ، لان سلطة الحبر الاعظم في الكنيسة الكاثوليكية هي سلطة عامة شاملة ، كاملة ، غير مقيدة بشرط ولا بزمان ولا بشخص . فلا يمكن للانسان او لقوم ان يظلوا كاثوليكيين ويستقلوا عن احبار رومية ولقد علمتنا تجارب غيرنا ان الاستقلال عن رومية هو الاستعباد للسلطة الزمنية .

ويرى القارئ الكريم ان الكرسي الرسولي المقدس لم يتدخل في الامر ، الا بعد ان رُفعت اليه القضية وطُلب منه تصديق الانتخابين المزعومين . . .

والآن ، وقد رأينا آباء كنيستنا ورعاتنا الجزيلي الاحترام مجتمعين منذ اليوم الثالث من كانون الثاني الحالي برئاسة اقدمهم سيامةً ، الحبر الجليل المطران يوحنا مراد ، رئيس اساقفة بعلبك ، لانتقاء خلف صالح يحيي آثار سلفائه المبجلين ، ويكمل تقاليدهم ويسير على آثارهم ، فاننا نشكر الله تعالى على ان اجتماعهم لم يطل امده .

نعم قد تفرقت كلمتهم فيه اولاً ، فذهب بعضهم الى وجوب تولية اقربهم الى مرافقة الفقيد العظيم . مَن كان هذا قد رباه صغيراً وسامه كاهناً وعينه كاتباً لاسراره ، ثم رفعه الى الدرجة الاسقفية السامية ، واعطاه لقب الاسقفي ، وسلمه كافة اعمال البطريركية فقام باعبائها تحت ادارته خير قيام ، فكان رفيقه

وساعده الامين مدة ٣٣ سنة وهو مثال الظاف. والتجرّد والاقدام والتقوى وجامع كل الصفات المطلوبة في الرئيس الديني ، فضلاً عن طول الاختبار والعلم الواسع والوداعة . وذلك لاعتقادٍ منهم انه اقدر من غيره على متابعة آثار السلف وحفظ تقاليد الطائفة . الّا ان اكثرهم ارتأوا اختيار حبر عُرف بالحزم والثبات والاقدام فضلاً عن خبرته الطويلة وكان قد ابتدأ حياته العمومية على عهد السيد البطريرك يوحنا الحاج ، واشتهر في ابرشيته الشاسعة بالاعمال الخيرية والعمرانية . فساير المرشح الاول ومشايعوه حزب الاكثرية مظهرين التجرد الحقيقي ، واتفقت كلمتهم اجمعين على المناداة بغبطة السيد البطريرك انطون عريضة بطريركاً مارونياً على انطاكية وسائر المشرق[1] . فترفع لمقامه السامي التهاني القلبية ، راجين له عهداً سعيداً ، وعمراً طويلاً ، ونهنئ السادة الاحبار لاتفاقهم وحسن اختيارهم ، ونهنئ الطائفة باحبار مثل هؤلاء السادة ، فيحق لها بكل صواب ان تفتخر متمثلة بقول الشاعر :

اذا سيّدٌ منا خلا ، قام سيّدٌ قؤولٌ لما قال الكرام ، فعولُ .

نقف الآن عند هذا الحدّ . وسنعود في فرصة ثانية الى الكلام عن انتخاب بعض البطاركة السابقين في القرن التاسع عشر ، وما جاء في بعض التواريخ ، وفي مذكرات بعض الرجال السياسيين عنها .

---

١) وُلد نبطته في بشرّي في ٢ آب ١٨٦٣ . ودخل سنة ١٨٧٩ مدرسة مار يوحنا مارون . وفي اواخر سنة ١٨٨٦ ، أُرسل الى باريس حيث درس في مدرسة سان سولبس الفلسفة واللاهوت وما اليهما من العلوم . رقي الى درجة الكهنوت في ٢٨ ايلول ١٨٩٠ . وبعد عودته الى لبنان ، عُيّن كاتباً سجلّاً في الكرسي البطريركي في آذار ١٨٩١ ، ثم جُعل محامياً للزواج وفاحصاً للكهنة . وفي ١٨ حزيران ١٩٠٨ سيم رئيس اساقفة طرابلس . فادار الابرشية نحو اربع وعشرين سنة بغاية الغيرة والنجرّد . الى ان انتُخب بالاجماع بطريركاً على مدينة الله انطاكية وسائر المشرق وراعياً للطائفة المارونية ، في ٨ كانون الثاني ١٩٣٢ ، وصار تنصيبه بمزيد الابهة والجلال نهار الاحد الواقع في ١٠ من الشهر المذكور .